مكانة رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في القرآن الكريم

The status of the Messenger of God, Muhammad, may God Almighty bless him and his family, in the Holy Qur'an

د. عطا الله مدب حمادي الزوبعي

Dr.. Atallah Meddeb Hammadi Zobaie

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد وآله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين أما بعد.

فإن هذا البحث يأتي في سياق الدفاع عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ونصرته، وذلك من خلال اظهار صفاته الخلقية العظيمة وابراز خصائصه الفريدة والكشف عن مكانته العالية منزلته الرفيعة عند الله تعالى.

إن الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونصرته واجب شرعي على الأمة وعلى المؤمنين أفرادا ومؤسسات حاكمين ومحكومين كل على قدر ما تهيأ له وتيسر.

ومعنى وجوب نصرته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ظاهر في القرآن الكريم ويتبين لنا من الآيات التالية قال تعالى: [إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ][1]، وقال تعالى: [وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ][2]، وقال تعالى: [[فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)][3]، فالآية الأولى تضمنت تحذيرا شديدا للمؤمنين من عدم نصرة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وأما الآية الثانية والثالثة في قوله تعالى: [لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ] وقوله تعالى: [فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ]، فنجد أن الله تعالى قد عطف النصرة على الإيمان، ومعلوم أن الإيمان قول وعمل وهو الاتباع، فتكون النصرة على هذا شيء آخر يضاف إلى الإيمان والاتباع وهو الموقف الدفاعي عن رسول الله صلى الله

(١) سورة التوبة.
(٢) سورة آل عمران.
(٣) سورة الأنفال.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

تعالى عليه وآله وسلم.

فالنصرة هي موقف تقفه الأمة ويقفه المؤمن لرفض الإساءة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وربما يقول قائل إن الله قد تكفل بنصر نبيه محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلا حاجة لموقفنا فقد قال الله تعالى: [إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)][1]، وقد قيل مثل هذا الكلام وسمعه الناس من بعضهم، وأقول في موقفهم هذا: كذلك الله غني عن العالمين لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين فلماذا نقوم بعبادته وحسن معاملة خلقه؟ والجواب لأن الله أمرنا بذلك وشرع لنا التدين بتعاليم الإسلام، وكذلك أمرنا الله بنصرة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلا يصح التفرقة بين المسألتين، فالدنيا دار ابتلاء واختبار وإن كان الله قد تكفل بنصر نبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فهو سبحانه يريد أن يرى منا موقفا وعملا في نصرة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال تعالى: [وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)][2].

والدفاع عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ونصره يتحقق برفض الإساءة إليه وردها عنه وإدانة المسيء بحقه واتباع شرعه ونشر سنته واظهار خصائصه وبيان منزلته وفضله على الناس جميعا.

وأنا أكتب هذه السطور عن مكانة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في القرآن الكريم أدرك على وجه التمام أن هذا الموضوع هو موضوع كبير أكبر من أن يحصره بحث محدد بعشرين أو ثلاثين صفحة، ولكن حتى لا أعدم المشاركة بمكرمة الدفاع عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لذلك حاولت أن أسطر بعض ما تيسر لي والله ولي التوفيق.

(١) سورة الحجر.

(٢) سورة الحديد.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

وأقول في هذا المقام قد جعل الله تعالى للأنبياء والرسل قدسية خاصة تليق بمقامهم وتظهر منزلتهم، فهم من يحمل أمانة السماء في الأرض، فلأجل أن تصل كلمات الله إلى الناس جميعا نصر الله تعالى الرسل وحماهم من كيد الكفار والمنافقين والسفهاء، قال تعالى: [كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)][1]، وآمن سبحانه وتعالى خوفهم وأذهب روعهم، وأحاطهم بكمال حفظه وتمام عنايته ووافر رعايته لأنهم المبلغين عنه سبحانه وتعالى.

وقد كانت عناية الله تعالى برسوله الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم عناية خاصة باعتبار عظيم منزلته وعموم رسالته وكونه خاتم الانبياء والرسل، فقد خصه الله تعالى بخصائص كثيرة وسمات عديدة ومزايا فريدة رفع الله بها منزلته على جميع خلقه وحباه بها من دون عباده وفضله على أنبيائه ورسله، فهو صلى الله تعالى عليه وآله وسلم صاحب اللواء المحمود والشاهد في اليوم المشهود والشفيع للخلائق يوم العرض على الله تعالى.

وعندما نقرأ القرآن الكريم فإننا نجد هذه المكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة والدرجة العالية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم واضحة جلية، ونجد كذلك العناية الإلهية الفائقة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خلال الحفظ والرعاية والتوقير.

وفي هذا البحث سأتناول إن شاء الله تعالى مكانة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ومنزلته في القرآن الكريم وبما تيسر لي من ذلك وبحسب الخطة التالية:

مقدمة الموضوع.

المبحث الأول: العناية الإلهية الخاصة برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

(١) سورة المجادلة.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

المبحث الثاني: تعظيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتوقيره.

المبحث الثالث: تفضيله على الخلق جميعا ورفع منزلته في الدنيا والآخرة.

مصادر البحث

المبحث الأول
العناية الإلهية الخاصة برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم

لقد كانت عناية الله تعالى برسوله الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عناية خاصة فاقت العناية الإلهية بالأنبياء والرسل من قبل وقد كشف القرآن الكريم عن هذه العناية فقال تعالى: [وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨)][1]، فهذه الآية المباركة تبين للناس العناية الإلهية التامة والشاملة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

قال التستري: يعني ما ظهر على صفاتك من فعل وقدرة يتولى جملتك بالرعاية والكلاية والرضى والمحبة والحراسة من الأعداء[2].

وقال الطبري: يقول جلّ ثناؤه: فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك، ونحن نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين[3].

وقال الزجاج: فإنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك، ولا يصلون إلى مكروهك[4].

وقال ابن عاشور: وَالتَّفْرِيعُ فِي قَوْلِهِ: فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا تَفْرِيعُ الْعِلَّةِ عَلَى الْمَعْلُولِ اصْبِرْ لِأَنَّكَ بِأَعْيُنِنَا، أَيْ بِمَحَلِّ الْعِنَايَةِ وَالْكِلاءَةِ مِنَّا، نَحْنُ نَعْلَمُ مَا تُلاقِيهِ وَمَا يُرِيدُونَهُ بِكَ فَنَحْنُ نُجَازِيكَ عَلَى مَا تَلْقَاهُ

(١) سورة الطور.

(٢) التستري، تفسير التستري، ج ١، ص ١٥٥.

(٣) الطبري، تفسير الطبري، ج ٢٢، ص ٤٨٨.

(٤) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج ٥، ص ٦٨.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

وَنَحْرُسُكَ مِنْ شَرِّهِمْ وَنَنْتَقِمُ لَكَ مِنْهُمْ، وَقَدْ وَفَّى بِهَذَا كُلِّهِ التَّمْثِيلُ فِي قَوْلِهِ: فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا، فَإِنَّ الْبَاءَ لِلإِلْصَاقِ الْمَجَازِيِّ، أَيْ لَا نَغْفُلُ عَنْكَ، يُقَالُ: هُوَ بِمَرْأًى مِنِّي وَمَسْمَعٍ، أَيْ لَا يَخْفَى عَلَيَّ شَأْنُهُ. وَذِكْرُ الْعَيْنِ تَمْثِيلٌ لِشِدَّةِ الْمُلَاحَظَةِ وَهَذَا التَّمْثِيلُ كِنَايَةٌ عَنْ لَازِمِ الْمُلَاحَظَةِ مِنَ النَّصْرِ وَالْجَزَاءِ وَالْحِفْظِ[١].

إن هذه الآية المباركة هي في الحقيقة من الآيات التي تظهر العناية الخاصة برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلم تطلق بصيغة الجمع يعني قوله تعالى: [بِأَعْيُنِنَا] بحق نبي أو رسول من قبل، قال ابن عطية: وهذه الآية ينبغي أن يقررها كل مؤمن في نفسه، فإنها تفسح مضايق الدنيا[٢].

وقد وردت بصيغة المفرد في حق موسى عليه السلام، قال تعالى: [وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩)][٣] هكذا بصيغة المفرد، ولا شك أن هناك فرق في المعنى بين اللفظين فإن لكل لفظ وحرف في القرآن الكريم مناسبته في المعنى، وقد بين أهل التفسير هذا المعنى، قال الرازي: قَالَ هَاهُنَا بِأَعْيُنِنا وَقَالَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي نَقُولُ لَمَّا وَحَّدَ الضَّمِيرَ هُنَاكَ وَهُوَ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ وحده وَحَّدَ الْعَيْنَ وَلَمَّا ذَكَرَ هَاهُنَا ضَمِيرَ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ بِأَعْيُنِنا وَهُوَ النُّونُ جَمَعَ الْعَيْنَ، وَقَالَ: بِأَعْيُنِنا هَذَا مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى فَلِأَنَّ الْحِفْظَ هَاهُنَا أَتَمُّ[٤].

فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى والحفظ لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أتم وأكمل.

قال البيضاوي: [فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا] في حفظنا بحيث نراك ونكلؤك وجمع العين

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص ٨٤.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج ٥، ص ١٩٤.

(٣) سورة طه.

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٨، ص ٢٢٩.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

لجمع الضمير والمبالغة بكثرة أسباب الحفظ[١].

وقال الآلوسي: [فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا] أى نحفظك من الاعوجاج والتغير في جريان أحكامنا عليك حتى تصير مستقيما بنا لنا فينا ونحن نراك بجميع عيون الصفات والذات بنعت المحبة والعشق، ننظر بها إليك شوقا إليك وحراسة لك نحرسك بها حتى لا يغيرك غيرها من الحدثان عنا ونرفع بها عنك طوارق قهرنا فإنك في مواضع عيون محبتنا وأنت في أكناف لطفنا انظر كيف ذكر الأعين وليس في الوجوه اشرف من العيون[٢].

وقال القاسمي: ونكتة جمع (العين) هنا وإفرادها في قصة الكليم، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع، ووحد ثمة لإضافته الواحد، هو المبالغة في الحفظ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم، لأن المقصود تصبير حبيبه على المكايد ومشاقّ التكاليف والطاعة. فناسب الجمع، لأنها أفعال كثيرة، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام[٣].

وقال سيد قطب في قوله تعالى: [وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا]: يا له من تعبير! ويا له من تصوير! ويا له من تقدير! إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان، هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله حتى بين التعبيرات المشابهة، لقد قيل لموسى عليه السلام: [وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)][٤]، وقيل له: [وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩)][٥]، وقيل له: [وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)][٦]، وكلها تعبيرات تدل

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ٥، ص ١٥٦.
(٢) الآلوسي، روح البيان، ج ٩، ص ٢٠٦.
(٣) القاسمي، محاسن التأويل، ج ٩، ص ٥٥.
(٤) سورة طه.
(٥) سورة طه.
(٦) سورة طه.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

على مقامات رفيعة، ولكنه قيل لمحمد- صلى الله عليه وسلم-: «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا» وهو تعبير فيه إعزاز خاص، وأنس خاص، وهو يلقي ظلا فريدا أرق وأشف من كل ظل.. ولا يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص، فحسبنا أن نشير إلى ظلاله، وأن نعيش في هذه الظلال(١).

وقال ابن عاشور: وَجَمْعُ الْأَعْيُنِ: إِمَّا مُبَالَغَةٌ فِي التَّمْثِيلِ كَأَنَّ الْمُلَاحَظَةَ بِأَعْيُنٍ عَدِيدَةٍ كَقَوْلِهِ: [وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا](٢)، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ [وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ](٣)، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْجَمْعَ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ مُتَعَلِّقَاتِ الْمُلَاحَظَةِ فَمُلَاحَظَةٌ لِلذَّبِّ عَنْهُ، وَمُلَاحَظَةٌ لِتَوْجِيهِ الثَّوَابِ وَرَفْعِ الدَّرَجَةِ، وملاحظة لجزاء أعدائه بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ، وَمُلَاحَظَةٌ لِنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ بِعُمُومِ الْإِيمَانِ بِهِ(٤).

وهكذا اتفقت كلمة العلماء المفسرين على المعنى الخاص للآية وهو أن الحفظ فيها أتم وأكمل، هذه الآية التي اختصت برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وقد ورد لفظ الجمع بأعيننا في حق سفينة نوح عليه السلام، قال تعالى: [وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا](٥)، وقال تعالى: [تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا](٦)، وذلك لأن المخاطر على سفينة نوح كانت كبيرة ومحيطة بها من كل جانب، قال تعالى: [وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ](٧) ، وكذلك هي المخاطر التي تعرض لها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كانت كبيرة ومحدقة به حيث تآمر عليه أهل الكفر والنفاق وكادوا له

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٤٠٢.
(٢) سورة هود، آية (٣٧).
(٣) سورة الذاريات، آية (٤٧).
(٤) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص ٨٤.
(٥) سورة هود، آية (٣٧).
(٦) سورة القمر، آية (١٤).
(٧) سورة هود، آية (٤٢).

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

ومكروا به لكن الله حماه فهو بأعين الله تعالى، والنتيجة أن العناية الإلهية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قد عدلت العناية الإلهية بأهل الأرض جميعا وذلك لأن سفينة نوح كانت تحمل جميع أهل الأرض بما فيهم الأنبياء والرسل، فالسفينة تحمل مستقبل أهل الأرض ومستقبل الانسان ومستقبل العبادة، ولو قال قائل إن السفينة استحقت هذه العناية لأجل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لكان ذلك معنى صحيحا.

فالشدائد التي تعرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمخاطر التي أحاطت به لا تقل عن تلك التي تعرضت لها سفينة نوح عليه السلام إن لم تكن أشد منها، وهذا ما يبين لنا الجهد الكبير والصبر العظيم على الأذى والتضحية التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل تبليغ الرسالة، فقد كان ابتلاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشد أنواع الابتلاء، وهذا الأمر يجعلنا أما المسؤوليات التي تقع على عواتقنا في وجوب محبته واتباعه وتوقيره ونصرته.

المبحث الثاني: تعظيم رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وتوقيره

عندما نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله تعالى قد عظم رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ومجده ومدحه ورفع درجته وأعلى شأنه ومقامه وأمر الناس بتعظيمه وتوقيره واتباع شريعته ونصرته، وقد أوجب الله تعالى ذلك على جميع الناس والأمم حتى الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله في الأمم السابقة وهذا يدل على غاية التعظيم والمكانة الرفيعة العالية، وسوف أذكر في هذا المبحث ما تيسر لي من الدلائل القرآنية على ذلك ومن خلال النقاط التالية:

أولا: توقير رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الخطاب القرآني.

إن معظم مناداة الله تعالى لرسوله

الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كانت مناداة بالرسالة أو بالنبوة، أما ما يخص الخطاب بالرسالة فقد قال الله تعالى: [يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ][١]، وقال تعالى: [يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)][٢]، قال شهاب الدين الحلبي: ناداه بأشرفِ الصفات البشرية[٣].

والآيتان في سورة المائدة وهي آخر سورة نزلت من القرآن الكريم على ما ثبت من الروايات الصحيحة.

وأما ما يخص النداء بالنبوة فهي كثيرة نحو قوله تعالى: [يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)][٤]، وقد تكرر الخطاب بعبارة: [[يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ] لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، بينما نجد أن معظم الخطاب الموجه لباقي الأنبياء والرسل بأسمائهم وهذا الأمر لا يحط من قدرهم ولكن الأمر فيه توقير خاص لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبيان لعلو مكانته ورفيع درجته بين الأنبياء والرسل.

ثانيا: القسم بحياته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

من الآيات التي فيها توقير لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هي الآية التي أقسم الله تعالى بها بحياة رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في قوله تعالى: [لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)][٥].

قال الأخفش: (لَعَمْرُكَ) والله اعلم «وَعَيْشِكَ» انما يريد به العُمْر[٦].

(١) سورة المائدة، آية (٤١).
(٢) سورة المائدة.
(٣) شهاب الدين الحلبي، الدر المصون، ج ٤، ص ٣٤٩.
(٤) سورة الأنفال.
(٥) سورة الحجر
(٦) الأخفش، معاني القرآن، ج ٢، ص ٤١٣.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

وقال الطبري: وقوله (لَعَمْرُكَ) يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وحياتك يا محمد، ثم أخرج الطبري في تفسيره بسنده عن عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: « مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا ذَرَأَ وَمَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا سَمِعْتُ اللَّهَ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: [لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ][1].

وقال الزجاج: هذه الآية آية عظيمة في تفضيل النبي عليه السلام أعني قوله سبحانه: [لَعَمْرُكَ]، جاء في التفسير أنه قسم بحياة محمد صلى الله عليه وسلم[2].

وقال القشيري: أقسم بحياته تخصيصا له فى شرفه، وتفضيلا له على سائر البرية، فقال وحياتك- يا محمد- إنهم لفى ضلالتهم وسكرة غفلتهم يتردّون، وإنهم عن شركهم لا يقلعون[3].

ونقل القرطبي الأجماع على هذا المعنى عن ابن العربي فقال: قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيُّ: قَالَ الْمُفَسِّرُونَ بِأَجْمَعِهِمْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى ها هنا بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْرِيفًا لَهُ، أَنَّ قَوْمَهُ مِنْ قُرَيْشٍ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ وَفِي حَيْرَتِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ. قُلْتُ: وَهَكَذَا قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: أَجْمَعَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي هَذَا أَنَّهُ قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِمُدَّةِ حَيَاةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَصْلُهُ ضَمُّ الْعَيْنِ مِنَ الْعَمْرُ وَلَكِنَّهَا فُتِحَتْ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، وَمَعْنَاهُ وَبَقَائِكَ يَا مُحَمَّدُ. وَقِيلَ: وَحَيَاتِكَ. وَهَذَا نِهَايَةُ التَّعْظِيمِ وَغَايَةُ الْبِرِّ وَالتَّشْرِيفِ، وقال القرطبي أيضا: قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ[4]: مَا

(١) الطبري، تفسير الطبري، ج ١٤ ص ٩١.
(٢) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج ٣، ص ١٨٣.
(٣) القشيري، لطائف الاشارات، ج ٢، ص ٢٧٧.
(٤) أَبُو الجَوْزَاءِ أَوْسُ بنُ عَبْدِ اللهِ الرَّبَعِيُّ البَصْرِيُّ تابعي حدث عن ابن عباس وعائشة وَعَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ، رَوَى عَنْهُ: أَبُو الأَشْهَبِ العُطَارِدِيُّ، وَعَمْرُو بنُ مَالِكٍ النُّكْرِيُّ، وَبُدَيْلُ بنُ

أَقْسَمَ اللَّهُ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّهُ أَكْرَمُ الْبَرِيَّةِ عِنْدَهُ[١].

ثالثا: وصفه القرآن الكريم بأوصاف عظيمة.

من الآيات التي تبين منزلة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم هي أن الله تعالى جمع له وصفين عظيمين في قوله تعالى: [يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)][٢]، فوصفه الله بالسراج المنير وهذا وصف مركب من وصفين ومنير صفة للسراج، فعلى الرغم من كون السراج مصدرا حقيقيا للطاقة في الكون كالشمس والنجوم والسرج التي في البيوت إلا أنه قد يكون السراج منيرا وقد يكون غير منير أو ضعيف الإنارة، فكان البيان بأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم سراجا منيرا.

وكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بوصفه سراجا منيرا فهو على هذا الوصف مصدرا ذاتيا للنور وليس عاكسا لنور مصدر آخر غيره.

وقد وصف الله تعالى الشمس بالسراج والقمر بالنور، قال تعالى: [وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)][٣]، وجمع الوصفين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعلوم أن في الشمس والقمر سبب للحياة والنور في الدنيا، وفي دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب للحياة والنور في الدنيا والآخرة.

فأما الحياة فقد قال تعالى: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

مَيْسَرَةَ، وَجَمَاعَةٌ، كَانَ أَحَدَ العُبَّادِ الَّذِيْنَ قَامُوا عَلَى الحَجَّاجِ فَقِيْلَ: إِنَّهُ قُتِلَ يَوْمَ الجَمَاجِمِ. الذهبي، سير أعلام ترجمة(١٥٠) ج ٤، ص ٣٧١، وقال ابن حجر في التقريب (٥٧٧): ثقة، أخرج له البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(١) القرطبي، تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٣٩.

(٢) سورة الأحزاب.

(٣) سورة نوح.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ]، قال الماتريدي في قوله تعالى: [لِمَا يُحْيِيكُمْ]، : بالذكر، والشرف والثناء الحسن في الدنيا، والحياة في الآخرة اللذيذة الدائمة، وإن متم وهلكتم فيما يدعوكم إليه، يكون لكم في الآخرة حياة الأبد(١).

وقد أخرج البخاري في صحيحه بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: [اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ]. ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ»، قَالَ: [الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)](٢) «هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»(٣).

فيتبين لنا أن الحاجة لدعوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أعظم من الحاجة للشمس والقمر لأن سببهما لظرف محدد أما دعوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ففيها الحياة الأبدية، قال تعالى: [وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)](٤).

وأما النور فقد قال الله تعالى: [يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)](٥)، والخطاب هنا في الآية الأخيرة لأهل الكتاب وهو تنبيه لهم على أن يتمسكوا بهذا النور ولا يفرطوا فيه ليخرجوا بهذا النور من الظلمات التي هم فيها، والذين يسيئون إلى رسول الله صلى

(١) أبو منصور الماتريدي، تأويلا أهل السنة، ج ٥، ص ١٧٧.
(٢) سورة الفاتحة.
(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم (٤٤٧٤).
(٤) سورة العنكبوت.
(٥) سورة المائدة.

الله عليه وآله وسلم من أهل الكتاب هم في الجانب المظلم من الحياة ويريدون أن يبقى أهل الكتاب في هذه الظلمات وهم في حقيقة الأمر يظلمون أنفسهم ويسيئون لأنفسهم وأهل ملتهم.

قال الطبري: يقول جل ثناؤه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب:»قد جاءكم»، يا أهل التوراة والإنجيل=»من الله نور»، يعني بالنور، محمدًا صلى الله عليه وسلم الذي أنار الله به الحقَّ، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبيِّن الحق. ومن إنارته الحق، تبيينُه لليهود كثيرًا مما كانوا يخفون من الكتاب(١).

رابعا: الأمر بالأدب في حضرته صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد نهى الله تعالى المؤمنين عن التقديم بين يدي رسوله الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال تعالى: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)](٢)، فيحرم التقدم بكلام أو برأي في حضرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال الشافعي رحمه الله: أي: لا تتقدموا: يقال: قدَّم، وتقدَّم، واستقدَم: بمعنى واحد، ومُقَدِّمة الجيش: بكسر الدال من هذا، ومن قال المقدَّمة: أراد التي قُدِّمت(٣).

ونهى الله تعالى عن رفع الصوت بحضرته، فقال تعالى: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)](٤).

فجعل الله تعالى رفع الصوت بحضرته مبطلا للعمل فأصبح عدم مراعاة الأدب

(١) الطبري، تفسير الطبري، ج ١٠، ص ١٤٣.

(٢) سورة الحجرات.

(٣) الشافعي، تفسير الشافعي، ج ٣، ص ١٢٦٩

(٤) سورة الحجرات.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعدل الشرك بالله من حيث العقوبة، فالشرك يبطل العمل الصالح، قال تعالى: [وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)][1]، والإساءة لرسول الله صلى الله عليه وعدم التزام الأدب معه يبطل العمل الصالح كذلك وهذ لا شك من تعظيمه وتوقيره واجلاله.

كما نهى الله تعالى عن دعاء الرسول كدعاء عامة الناس، قال تعالى: [لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا]، يعني الواجب خفض الصوت ومناداته بالرسالة والنبوة وليس باسمه فقط، قال القرطبي: أَيْ لَا تُخَاطِبُوهُ: يَا مُحَمَّدُ، وَيَا أَحْمَدُ. وَلَكِنْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَيَا رَسُولَ اللَّهِ، تَوْقِيرًا لَهُ.[2] ، وهذا الأمر يعني الأدب مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مستمر في جميع الأزمان، قال القرطبي: وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَفْعَ الصَّوْتِ عِنْدَ قَبْرِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونقل القرطبي عن الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ قوله: حُرْمَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَيِّتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا، وَكَلَامُهُ الْمَأْثُورُ بَعْدَ موته في الرفعة مِثَالُ كَلَامِهِ الْمَسْمُوعِ مِنْ لَفْظِهِ، فَإِذَا قُرِئَ كَلَامُهُ، وَجَبَ عَلَى كُلِّ حَاضِرٍ أَلَّا يَرْفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ، وَلَا يُعْرِضَ عَنْهُ، كَمَا كَانَ يَلْزَمُهُ ذَلِكَ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ تَلَفُّظِهِ بِهِ. [3].

ومن الأدب مع رسول الله الذي أمر الله تعالى به المؤمنين هو الاستئذان عند الانصراف من مجلسه ومعيته، قال تعالى: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ

(١) سورة الزمر.
(٢) القرطبي، تفسير القرطبي، ج ١٦، ص ٣٠٦.
(٣) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٠٧.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢)](١)، فربط سبحانه وتعالى بين إيمان المؤمنين واستئذانهم وذلك لعظيم حرصه سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم واعلاء مكانته في نفوس المسلمين، قال القرطبي: « إِنَّمَا» فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْحَصْرِ، الْمَعْنَى: لَا يَتِمُّ وَلَا يَكْمُلُ إِيمَانُ مَنْ آمَنَ بالله ورسوله إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الرَّسُولِ سَامِعًا غَيْرَ مُعَنِّتٍ فِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ يُرِيدُ إِكْمَالَ أَمْرٍ فَيُرِيدُ هُوَ إِفْسَادَهُ بِزَوَالِهِ فِي وَقْتِ الْجَمْعِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ(٢).

خامسا: وصف القرآن الكريم خلقه صلى الله عليه وسلم بالخلق العظيم.

قال تعالى: [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)](٣)، إن هذا الوصف القرآني العظيم لخلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هو تكريم كبير وفضل عظيم يضاف إلى ما أعطاه الله تعالى من عطايا وخصه بمزايا في الدنيا والآخرة، فالخلق الكريم هو من أعظم المنح الإلهية وأثقل الأعمال في الميزان يوم القيامة وأفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى وقد جاءت الأحاديث الصحيحة تصرح بذلك، وسئل التستري عن الكرامات، فقال: وما الكرامات، إن الكرامات شيء ينقضي لوقته، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك بخلق محمود، قلت: هذا بالنسبة لعامة العباد فكيف برسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقد وهبه الله كمال الأدب وتمام الخلق فكان ذلك غاية الفضل ومنتهى التكريم، قال تعالى: [وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ

(١) سورة النور.

(٢) القرطبي، تفسير القرطبي، ج ١٢، ص ٣٢٠.

(٣) سورة القلم.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

عَظِيمًا (١١٣)][1]، وقال تعالى: [وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)][2].

وقد كان خلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم معجزة إلهية في وسط بيئة تعاني من قسوة القلوب وشدة المعاملة وقطيعة الرحم وامتهان المرأة والمسكين والضعيف إلا في أفراد قلة من المجتمع، فجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بقيم خلقية عظيمة من العدل والإنصاف والرحمة والمودة والحياء وصلة الرحم والعطف والعفو ولين الجانب، قال تعالى: [فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)][3]، وقال تعالى: [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)][4].

فأبهر الناس بخلقه الكريم وكسب قلوب العباد واستمال نفوسهم ولانت له أفئدتهم وانقادت لطريقته عقولهم فآمن به الناس إلا المتكبرون المكابرون بخطاياهم قال تعالى: [فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)][5]، وقال تعالى: [وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا][6].

وكان خلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هو خلق القرآن الكريم فكان قرآنا يمشي على الأرض، وقد أخرج عبد الرزاق في تفسيره بسنده عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ , فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ] قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ , أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فَقَالَتْ:

(١) سورة النساء.
(٢) سورة الضحى.
(٣) سورة آل عمران.
(٤) سورة التوبة.
(٥) سورة الأنعام.
(٦) سورة النمل، آية (١٤).

أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ , فَقَالَتْ: «إِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , كَانَ الْقُرْآنَ»(١).

المبحث الثالث: تفضيله على الخلق جميعا ورفع منزلته في الدنيا والآخرة

لقد فضل الله تعالى رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم على جميع خلقه من ملائكته وأنبيائه ورسله وقرن اسمه سبحانه وتعالى باسمه وطاعته بطاعته، وسأذكر هنا بعض ما تيسر من ذلك.

أولا: ختم الله به النبوات وفضله على جميع الرسل ورفع ذكره.

قال تعالى: [مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)](٢)، فلا نبي بعده ولا شريعة سوى شريعته، فقد نسخ الله بشرِيعته الشرائع السماوية، وفضله سبحانه وتعالى على جميع خلقه، قال تعالى: [تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ](٣)، والذي رفعه الله أعلى الدرجات وفضله على جميع الرسل هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بدليل كل ما ذكرته في هذا البحث وما فاتني ذكره مما هو موجود في كتاب الله تعالى.

قال القشيري: جمعتهم الرسالة ولكن تباينوا فى خصائص التفضيل، لكل واحد منهم أنوار، ولأنوارهم مطارح، فمنهم من هو أعلى نورا، وأتم من الرفعة وفورا فلم تكن فضائلهم استحقاقهم على أفعالهم وأحوالهم، بل حكم بالحسنى أدركهم، وعاقبة بالجميل تداركتهم(٤).

وقد أخرج اسماعيل بن جعفر بسنده

(١) عبد الرزاق، التفسير، رقم (٣٢٧٤).
(٢) سورة الأحزاب.
(٣) سورة البقرة.
(٤) القشيري، لطائف الإشارات، ج ١، ص ١٩٥.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيَتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ «[1].

وأخرج أحمد في مسنده بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ»[2].

ومن الآيات التي تدل على عظيم منزلته قوله تعالى: [وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)][3]،

قال التستري: وصلنا اسمك باسمنا في الأذان والتوحيد، فلا يقبل إيمان العبد حتى يؤمن بك[4].

وقال الطبري: فلا أُذْكَرُ إلا ذُكِرْتَ معي، وذلك قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله[5].

قال حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ
مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ الْإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ
إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وشق لَهُ من إسمه ليحله
فذو الْعَرْش مَحْمُود وَهَذَا مُحَمَّد[6].

(١) اسماعيل بن جعفر، أحاديث إسماعيل بن جعفر رقم (٢٤٩)، وبهذا اللفظ يعني بلفظ فضلت أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الغنيمة، برقم (١٥٥٣) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وابن حبان في صحيحه برقم(٢٣١٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم (١٠٩٧٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الْفَضَائِلِ، بابُ تَفْضِيلِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ، برقم (٢٢٧٨).

(٣) سورة الشرح.

(٤) التستري، تفسير التستري، ج ١، ص ١٩٨.

(٥) الطبري، تفسير الطبري، ج ٢٤، ص ٤٩٤.

(٦) السيوطي، الخصائص الكبرى، ج ١، ص ١٣٤.

ويوم القيامة يكون شفيعا للخلائق، وهو صاحب المقام المحمود، قال تعالى: [وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)][١].

وقد أخرج ابن أبي شيبة في مسنده بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: [عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا] قَالَ: «الشَّفَاعَةُ»[٢].

وأخرج الطيالسي في مسنده بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْرَمُ الْخَلاَئِقَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ قَرَأَ [عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا][٣].

ثانيا: عالمية رسالته وسعت الرحمة في بعثته.

من رفيع درجته وعظيم مكانته هو عالمية رسالته فقد أرسله الله تعالى لجميع الناس بينما كان الرسل قبله يبعثون إلى أقوامهم، بل شملت دعوته الثقلين الأنس والجن، قال تعالى: [تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)][٤]، فيدخل الإنس والجن من ضمن من أرسل إليهم صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا لم يكن لنبي من قبله.

وقال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)][٥]، جميع الناس حتى الأنبياء السابقين، قال تعالى: [وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)][٦].

(١) سورة الإسراء.
(٢) ابن أبي شيبة، المصنف، رقم (٣١٧٤٥).
(٣) الطيالسي، مسند الطيالسي، رقم (٢٤٩).
(٤) سورة الفرقان.
(٥) سورؤة سبأ.
(٦) سورة آل عمران.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

قال القرطبي: فَأَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَيَنْصُرُوهُ إِنْ أَدْرَكُوهُ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا بِذَلِكَ الْمِيثَاقِ عَلَى أُمَمِهِمْ[1].

فكان أهل الكتاب يؤمنون به ويبشرون بظهوره وينتظرون بعثته، وهذا من عظيم منزلته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بين الرسل.

وعالمية رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ارتبطت بسعة رحمة الله للناس فقد أرسله الله رحمة للعالمين، قال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)][2]، فلما أراد الله بالناس الرحمة بعث نبي الرحمة، فهو صلى الله عليه وآله وسلم الرحمة المهداة للعالمين.

فعن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»[3].

ورحمة الله واسعة وسعت كل شيء ولكن ليس لها إلا طريقا واحدا وهو طريق الإيمان برسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يسع كل من علم به إلا الإيمان بدينه واتباع ملته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

فمن أراد أن تشمله رحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء توجب عليه الدخول من باب رحمة الله الواسعة وذلك بالإيمان برسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى: [وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

(١) القرطبي تفسير القرطبي، ج ٤، ص١٢٥.
(٢) سورة الأنبياء.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الْفَضَائِلِ، بَابٌ فِي أَسْمَائِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٢٣٥٥).

الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)](١).

والملاحظ في قوله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)]، هو أن هذه الآية قد جاءت في سورة الأنبياء وبعد ذكر عدد كبير من الأنبياء في هذه السورة ومنهم أولوا العزم لتأتي هذه الآية المباركة لتبين رحمة الله تعالى بالناس جميعا من خلال بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا له معنى في علو منزلته ورفيع درجته بين الأنبياء والرسل.

هذا ما تيسر لي من ذكر بعض الأدلة التي تبين للناس علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورفعة مكانته في القرآن الكريم فهو سيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين، وبعد كل هذا التقديم والتعظيم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتي من لا خلاق له في الآخرة ولا يعرف الحلال من الحرام ولا الأخلاق والمروءة ويسيء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إنهم بإساءتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسيئون للطهر والقداسة والنقاء ويشتمون القيم والأخلاق والشرائع ويؤذون جميع الأنبياء والرسل والمؤمنين ، وهم بذلك يظلمون أنفسهم ظلما كبيرا.

مصادر البحث

-القرآن الكريم.

-أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى ٦٨٥هـ)، المحقق محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ.

-التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير

(١) سورة الأعراف.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى ١٣٩٣هـ)، الناشر الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر ١٩٨٤ هـ.

-الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى ٧٥٦هـ)، المحقق الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر دار القلم، دمشق.

-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى ٥٤٢هـ)، المحقق عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٢ ه.

-تفسير التستري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (المتوفى ٢٨٣هـ)

جمعها أبو بكر محمد البلدين المحقق: محمد باسل عيون السودن الناشر منشورات محمد علي بيضون / دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ.

-جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى ٣١٠هـ)، المحقق أحمد محمد شاكر، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

-سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى ٧٤٨هـ)، الناشر دار الحديث- القاهرة، الطبعة ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

-روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (المتوفى ١١٢٧هـ)، الناشر دار الفكر - بيروت.

-في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى ١٣٨٥هـ)،

الناشر دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة السابعة عشر – ١٤١٢ هـ.

-لطائف الإشارات = تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى ٤٦٥هـ)، المحقق إبراهيم البسيوني، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة الثالثة.

-معانى القرآن، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى ٢١٥هـ)، تحقيق الدكتورة هدى محمود قراعة، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م.

-مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى ٦٠٦هـ)، الناشر دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

-محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى ١٣٣٢هـ)، المحقق محمد باسل عيون السود، الناشر دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ.

-معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى ٣١١هـ)، المحقق عبد الجليل عبده شلبي، الناشر عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

-تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق محمد عوامة، الناشر دار الرشيد – سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ – ١٩٨٦

-الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى ٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.

-تفسير الماتريدي (تأويلات أهل

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

السنة)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: **٣٣٣**هـ)، المحقق د. مجدي باسلوم، الناشر، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، **١٤٢٦** هـ - **٢٠٠٥** م.

-المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى **٢٦١**هـ)، المحقق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- تفسير الإمام الشافعي، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى **٢٠٤**هـ)، جمع وتحقيق ودراسة د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (رسالة دكتوراه)، الناشر دار التدمرية - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى **١٤٢٧** - **٢٠٠٦** م.

-تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى **٢١١**هـ)

الناشر دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق د. محمود محمد عبده، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، سنة **١٤١٩**هـ.

-حديث علي بن حجر السعدي عن إسماعيل بن جعفر المدني، إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري الزرقي مولاهم، أبو إسحاق المدني - ويكني أيضا أبا إبراهيم (المتوفى **١٨٠**هـ)، دراسة وتحقيق عمر بن رفود بن رفيد السّفياني، الناشر مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض - شركة الرياض للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى **١٤١٨** هـ - **١٩٩٨** م.

-الجامع الكبير - سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى **٢٧٩**هـ)، المحقق بشار عواد معروف، الناشر دار الغرب الإسلامي - بيروت، سنة النشر **١٩٩٨** م.

-الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى **٣٥٤**هـ)، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى **٧٣٩** هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، **١٤٠٨** هـ - **١٩٨٨** م.

-مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى **٢٤١**هـ)، المحقق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، **١٤٢١** هـ - **٢٠٠١** م.

-لخصائص الكبرى، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى **٩١١**هـ)، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت.

- المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى **٢٣٥**هـ)، المحقق كمال يوسف الحوت، الناشر مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، **١٤٠٩**.

- مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى (المتوفى **٢٠٤**هـ)، المحقق الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، الناشر دار هجر - مصر، الطبعة الأولى، **١٤١٩** هـ - **١٩٩٩** م.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)